الفصل الخامس

بهزاد ومعاصروه -
مدرسة بخارى

ولد بهـزاد فـي هراة حـوالى سنة ٨٥٤هـ (١٤٥٠)، ودرس النقش والتصوير على بير سيد أحمد التبريزى، ويقول آخرون على ميرك نقاش من هراة، ومهـما يكن من شيء فـإنه تلقى تعليمـا حسنًا بفضل رعـاية السلطان حسين بيقرا ووزيره مير على شير.

وظل بهزاد فى هراة حـتى أفل نجم التيمـوريين وزالت دولتهم على يد محمد خـان شيبانى، الذى استولى على عـاصمتهم سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧)، ولم يتـرك بهزاد مقـره فى هراة إلا بعد أن استولى عليـها الشـاه إسمـاعيل الصفوى سـنة ٩١٦هـ (١٥١٠)؛ فانتقل معـه إلى تبريز، وحظى عنده وعند خليفته الشاه طهماسب بمكانة قل أن يصل إليها فنان قط.

ويروون أنه لما كانت الحرب بين الشاه إسماعيل وبين الترك سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤) بلغ من خوفه على بهزاد أن أخفاه هو والخطاط المشهور شاه محمود نيـشابورى فى قـبو، ولمـا انتهت المـعركـة كـان أول همـه الاطمـئنان على سلامتهما.

وفى سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٢) عـين الشاه إسمـاعيل بهزاد مـديراً لمكتبـته الملكية، ورئيسًا لكل أمناء المكتـبة، والخطاطين، والمصورين، والمذهبين. وقد حفظ لنا المؤرخ خـواندميـر، براءة تعيينه، ونشـرت هذه الوثيقـة الكبرى مع ترجمة فرنسية فى الجزء الرابع والعشرين من مجلة العالم الإسلامى[1] Revue du Monde Musulman وتزجمهـا أيضا إلى الإنجليزية الأستـاذ أرنولد فى آخر كتابه عن التصوير فى الإسلام.

(١) تحت عنوان Deux documents inedits relatifs a Behzad بقلم Mirza Mohammed Qaz-wini et L. Bouvat

اللوحة رقم (١٩)

(شكل ٢٦)

اختطاف فتاة فى قارب

مدرسة هراة فى أواخر القرن التاسع الهجرى

مجموعة ساكسيان

اللوحة رقم (٢٠)

(شكل ٢٧)

جماعة من الصوفية فى حديقة

للمصور قاسم على سنة ٨٩٠هـ

بالمكتبة البودليه فى أكسفورد

اللوحة رقم (٢١)

(شكلا ٢٨ و ٢٩)

السلطان حسين ميرزا فى وليمة - لهزاد

من مخطوط لبستان سعدى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ٨٩٣هـ

وقد أحرز بهزاد شهرة واسعة فاقت شهرة من سبقه من المصورين، ومن عاصره أو خلفه منهم. وتسابق قياصرة الهند من المغول إلى جمع صوره والإعجاب بها؛ ولكن هذه الحظوة جعلت المصورين يقلدونه، وحملت الخطاطين والهواة على أن ينسبوا إليه من الصور ما ليس من عمله، ويقلدون إمضاءه جريًا وراء ربح مادى، أو فخر أدبى؛ فأكثر الصور التى قد تلقى شعاعًا من الضوء على أعمال هذا الفنان العظيم يشك مؤرخو الفن الإسلامى فى صحة نسبتها إليه.

على أن بهزاد كان من أوائل الفنانين الفرس الذين مهروا بإمضائهم ما رقموه من صور؛ والمعروف أن الإمضاءات فى الفنون الشرقية لم تبلغ من الأهمية ما بلغته فى فنون الغرب، حيث نمت شخصية الفنان، وفطن إلى حقه فى الافتخار بما صنعته يداه[1].

هذا وقد عنى الهواة ومؤرخو الفن بالبحث عما يصح نسبته إلى بهزاد من الصور الكثيرة التى تحمل إمضاءه. وقد كان معرض الفن الفارسى فى لندن سنة ١٩٣١ أكبر عون لهم على ذلك، وإن كان لا يزال بينهم وبين الوصول إلى نتيجة حاسمة مرحلة واسعة وشوط بعيد.

ومما يدل على عظم المرتبة التى وصل إليها بهزاد أنه لم يجعل للخطاطين أى نفوذ عليه، فلم يتركهم يحددون الفراغ الذى يتركونه له فى المخطوطات، ويتحكمون فى انتقاء الموضوعات التى عليه إيضاحها بالصور؛ بل أخذ يختار بنفسه ما يروق له، ولم يكن يترك للخطاطين فى الصحيفة

---

(١) راجع .... Kuhnel : Miniaturmalerei ص١٦ و Islam Arnold : Painting in ص٧١.

المصورة إلا سطوراً قليلة إن لم يستقل بها كلها، أو يذهب إلى أبعد من هذا فيأخذ لصورته صحيفتين متجاورتين[١].

وفى مكتبة يلدز باستانبول صورة لبهزاد تمثله شخصًا طيبًا يغلبه الحياء، ويرجع عهد هذه الصورة إلى الأسرة الصفوية، وقد نشرها الأستاذ ساكسيان فى كتابه عن الصور المصغرة الفارسية[٢].

وإذا نحن عرجنا الآن على استعراض الصور التى تنسب إلى بهزاد فإننا نفعل ذلك بشىء من التحفظ، فضلاً عن أننا لن نذكر منها إلا ما يكاد يتفق العلماء على صحة نسبته إليه.

فمن آثار القسم الأول من حياته، أى من صناعته فى هراة، صورتان للسلطان حسين بيقرا ولمحمد خان شيبانى إحداهما غير تامة، ولهاتين الصورتين قيمة كبيرة؛ فهما أول ما نراه فى الفن الفارسى من صور شخصية حقيقية يدرس فيها شخص بسحنته وصفاته الجسمية مما لم يكن يستطيعه فى ذلك العصر من مصورى آسيا إلا الصينيون واليابانيون[٣].

وقد لاحظ الأستاذ الدكتور كونل Dr. Kuhnel أن هناك علامة تميز أكثر الصور التى رسمها بهزاد وهى وجود رجل ذى سحنة بربرية ولعل المصور الكبير كان يرى فى ذلك خير وسيلة لإظهار الفرق بين تلك السحنة البربرية وبين سحنة الرجال الآخرين من الجنس الأبيض. وقد لوحظ أيضا أن بهزاد كان يتجنب تصوير النساء ما استطاع إلى ذلك سبيلا[٤].

---

(١) قارن Kuhnel: Miniaturmalerei. . . . ص٧ و Kuhnel: Islamische Kleinkunst ص٥٠ وما بعدها.

(٢) انظر Sakisian: La Miniature Persane اللوحة ٧٤ شكل ١٣٠.

(٣) انظر Sakisian: ibid ص٦٧-٦٨.

(٤) انظر Kuhnel: Islamische Kleinkunst ص٥٠.

ويحق لدار الكتب المصرية أن تفخر بمخطوط فيها من كتاب بستان سعدى يشمل خمس صور، تكاد تكون فى الوقت الحاضر أمتن أساس تستند عليه دراسة بهزاد، فإن الثقة بصحة نسبتها إليه أعظم من الثقة بنسبة أى صور أخرى إذ المخطوط غاية فى الإبداع، ودقة الصناعة؛ كتبه أكبر خطاطى العصر «سلطان على الكاتب» سنة ٨٩٣هـ (١٤٨٨) للسلطان حسين بيقرا الذى نرى صورته فى صدر المخطوط[١] ومن الطبيعى أن يوكل عمل الصور فى مثل هذه التحفة إلى بهزاد نفسه. وعلى كل حال فإن فيها أربع صور عليها إمضاء هذا الفنان ونصها: «عمل العبد بهزاد»[٢]. وتتجلى فى هذه الصور البراعة الفائقة التى امتاز بها بهزاد فى مزج الألوان ومحاكاة الطبيعة، والعناية بتمييز كل شخصية من الأخرى، والتعبير عن الحالات النفسية المختلفة. وفى الصورة التى تمثل الملك دارا مع راعى خيله[٣]، يظهر توفيق بهزاد فى تصوير الطبيعة الريفية وتفوقه فى رسم الخيل. وفى أربع الصور الأخرى واحدة تمثل سيدنا يوسف يفر من زليخا امرأة العزيز حين شيدت فى سبيل إغوائه قصراً فيه سبع طبقات من الأبواب، وزينت الغرفة الداخلية بصور تمثلها بين ذراعى سيدنا يوسف زاعمة أنه حين يراها لابد واقع فى شراكها، ولكنه فطن إلى الحيلة وصلّى ففتحت الأبواب ونجا من زليخا. ونلاحظ فى رسمه ما اعتاده الفرس فى تصويرهم من تغطية وجوه الرسل وإحاطة رؤوسهم بهالة من الضوء[٤].

---

(١) انظر اللوحة ٢١ شكلى ٢٨ و٢٩.

(٢) كما أن فى أول هذا المخطوط أربع صفحات ملونة (سرلوح) زخارفها زرقاء وذهبية وفى كنار إحدى هذه الصفحات العبارة الآتية: «عمل العبد مارى المذهب». انظر G. Wiet: L' Exposition persane de 1931 ص٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر اللوحة ٢٣ شكل ٣١.

(٤) انظر اللوحة ٢٢ شكل ٣٠ وقارن Arnold: Painting in Islam ص١٠٥ وما بعدها.

وتمثل صورة أخرى بعض علماء الدين يتجادلون فى مسجد[١]. بينما تمثل الصورة الأخيرة مناظر أخرى فى مسجد[٢].

وفى المتحف البريطانى ثلاث صور فى مخطوط صغير من المنظومات «الخمسة» لنظامى عليها إمضاء بهزاد، وصناعتها من الإبداع والدقة بحيث لا تترك مجالاً كبيراً للشك فى صحة هذه النسبة؛ واثنتان منها تمثلان معركتين حربيتين لم يبلغ الفن الفارسى إلى تصوير مثلهما فى قوة التعبير والحرية الفنية.

وهناك صورة فى مخطوط من كتاب «بستان سعدى»، يمتلكه الآن المستر شيستر بيتى، على بعضها توقيع لبهزاد. ولكنا لا نريد أن نعرض هنا لكل ما ينسب إلى هذا الفنان، فإن المجال لا يتسع لمناقشة صحة هذه النسبة أو خطئها[٣].

وقد زعم بعض مؤرخى الفن أن بهزاد لا يستحق الشهرة التى نالها. وفى الحق أنه من الصعب أن نجد فى أعماله من البراعة والمقدرة الخارقة للعادة ما يبرر كل هذه الشهرة، كما أنه من الصعب أيضا اعتباره مبدع مدرسة أو طراز جديد بالمعنى الحديث الذى نفهمه. ولكن بهزاد مثال المصور الكامل انتهى عنده تطور التصوير الفارسى فى عهد المدرستين الفارسية التترية ثم التيمورية وبلغ التقدم منتهاه، فاستطاع هذا الفنان بقدرته العجيبة على التأليف

---

(١) انظر اللوحة ٢٥ شكل ٣٣.

(٢) انظر اللوحة ٢٤ شكل ٣٢ وقارن Binyon, Wilkinson & Gray: ibid ص٩٨-٩٩ و Wiet: L'Exposition persane de 1931 ص٧٤ - ٧٨.

(٣) راجع المثال الذى كتبه الأستاذ اتنجهوزن R. Ettinghausen عن بهزاد فى ذيل دائرة المعارف الإسلامية، صحيفة ٤٠-٤٢ من النسخة الفرنسية. وقارن Arnold: Painting in Islam

اللوحة رقم (٢٢)

(شكل ٣٠)

سيدنا يوسف يفر من زليخا - لبهزاد

من مخطوط لبستان سعدى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ٨٩٣هـ

اللوحة رقم (٢٣)

(شكل ٣١)

الراعى ودارا ملك الفرس - لبهزاد

من مخطوط لبستان سعدى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ٨٩٣هـ

اللوحة رقم (٢٤)

(شكل ٣٢)

مناظر فى مسجد – لبهزاد

من مخطوط لبستان سعدى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ٨٩٣هـ

اللوحة رقم (٢٥)

(شكل ٣٣)

فقهاء يتجادلون - لبهزاد

من مخطوط لبستان سعدى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ٨٩٣هـ

اللوحة رقم (٢٦)

(شكل ٣٤)

صورة درويش من بغداد - لبهزاد

مجموعة شستر بيتى

(شكل ٣٥)

صورة فارسية للوحة تعزى إلى جنتيلى بلليني المصور البندقى

القرن الحادى عشر الهجرى

مجموعة فيتالى ماجار

اللوحة رقم (٢٨)

(شكل ٣٦)

مناظر فى حمام – لبهزاد

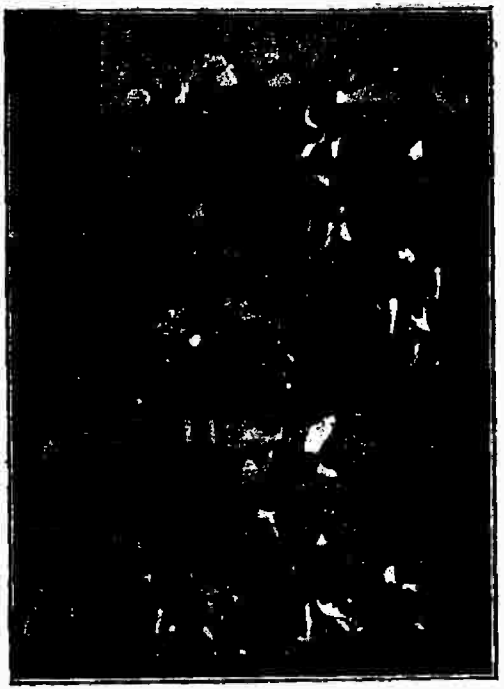

(شكل ٣٧)

بناء مسجد – لبهزاد

من مخطوط للمنظومات الخمسة لنظامى – بالمتحف البريطانى

التصويرى، ومزج الألوان، ومراعاة الطبيعة، وجعل أسارير الوجه لأشخاص صوره ملائمة لأعمالهم وحالاتهم النفسية، نقول استطاع بهزاد بفضل ذلك كله أن يحوز رضاء معاصريه، وأن يصل إلى شهرة لا تعادلها شهرة أى فنان آخر فى العالم الإسلامى[١].

قاسم على

وهناك فنان آخر نبغ فى هراة فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر) ظل مجهولا لمؤرخى الفن الإسلامى، يخلطون بين آثاره وآثار بهزاد حتى عرض الأستاذ ساكسيان لفحص الصور التى انتحلت على الفنان الأخير، والتوقيعات التى كانت تنسب خطأ إليه، فكشف، فى مخطوط من القصائد الخمسة لنظامى تاريخه ٨٩٩هـ (١٤٩٣) ومحفوظ الآن بالمتحف البريطانى، إمضاء المصور قاسم على فى صور من هذا المخطوط عليها إمضاء مزورة لبهزاد[٢].

وبالرغم من أن إمضاء قاسم على لا تظهر إلا فى سبع صور من المخطوط، فإن ساكسيان يعتقد بأن ستًا أخرى يمكن نسبتها إليه.

ولعل أبدع صورة فى هذا المخطوط تلك التى تمثل مدرسة فى الهواء الطلق[٣].

فالمعلم الهرم الذى يمد يده ليتناول كتابا يعرضه عليه أحمد تلاميذه، وذلك التلميذ الذى أضناه التعب أو غيره فأخذ يغط فى النوم، والآخران

---

(١) يضرب الإيرانيون المثل فى النبوغ فى التصوير بمانى وببهزاد.

(٢) Sakisian : La miniature persane ص٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر اللوحة ٢٩ شكل ٣٩.

اللذان استرسلا فى حديث قد لا تكون له بموضوع الدراسة أى علاقة، وهاتان الفتاتان اللتان تستمعان فى شىء من الدلال والخجل إلى حديث زميل لهما، وشجرة الساج العظيمة التى تشرف على المعلم وتلاميذه، كل هذا جميل يأخذ بمجامع القلب.

وجميلة أيضا تلك الصورة التى تمثل عدداً من النساء فى بركة حمام، تطريهن عازفة على العود، وتجذب إحداهن رقيقة لها تدعوها للنزول فى الماء، وترمق الجميع عين غريبة تنظر إليهن خلسة من كوّتى شرفة تطل على البركة، وتزين يسار الصورة حديقة فيها شجرة سرو وشجيرات زهور(١).

وقد وجد توقيع قاسم على فى صورة من مخطوط بمكتبة البودليان بأكسفورد تاريخه ٨٩٠هـ (١٤٨٥) وتمثل هذه الصورة جماعة من الصوفية يتحدثون فى حديقة(٢).

ومهما يكن من شىء فإن الصور التى عرضت فى معرض الفن الفارسى بلندن سنة ١٩٣١ أيدت ما ذكره عن قاسم على المؤرخ الفارسى خواندمير(٣)، وأظهرت براعته الفائقة فى مزج الألوان ورسم الأشخاص.

ومن الذين اشتهروا من تلاميذ بهزاد المصور شيخ زاده الخراسانى، ومير مصور السلطان، وآغا ميرك، ومظفر على(٤)، وسيأتى الكلام على بعضهم فى الفصل القادم.

(١) انظر اللوحة ٢٩ شكل ٣٨.

(٢) انظر اللوحة ٢٠ شكل ٢٧.

(٣) راجع Arnold: Painting in Islam ص ١٣٩ - ١٤٠ و Binyon, Wilkinson & Gray: ibid ص ٩١.

(٤) راجع Arnold: ibid ص ١٤١ - ١٤٥.

اللوحة رقم (٢٩)

(شكل ٣٨)

نساء فى الحمام ترمقهن عين فضولى

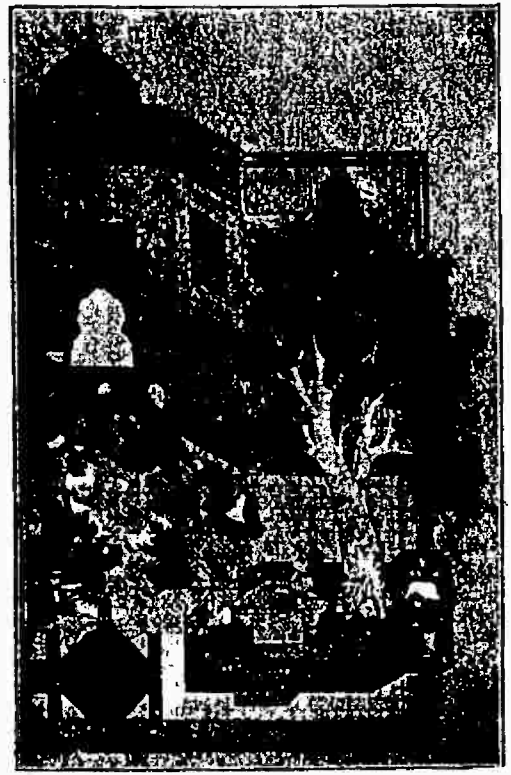

(شكل ٣٩)

مدرسة فى الهواء الطلق

للمصور قاسم على سنة ٨٩٩هـ - من محظوظ للمنظومات الخمسة لنظامى باسم أمير من أمراء السلطان حسين ميرزا - بالمتحف البريطانى

اللوحة رقم (٣٠)

(شكلا ٤٠ و ٤١)

عجوز تطلب إلى السلطان سنجر أن ينظر فى مظلمة لها

للمصور محمود المذهب - مدرسة بخارى سنة ٩٥٣هـ

من مخطوط «المخزن الأسرار» لنظامى بالمكتبة الأهلية بباريس

مدرسة بخارى (القرن العاشر الهجرى)

سقطت هراة سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧) فى يد المغيرين من الأزبك وعلى رأسهم شيبانى خان، وفر حاكمها الأمير بديع الزمان إلى تبريز، وفر معه كثير من الفنانين وإن يكن عميدهم بهزاد قد ظل فى هراة. وعلى كل حال فإن نصر الشيبانيين لم يدم طويلا، فما لبث الشاه إسماعيل الصفوى أن قضى على حكمهم، وهزم أميرهم محمد خان شيبانى فى معركة مرو سنة ٩١٦هـ (١٥١٠)، وضم خراسان إلى ملكه. ولم تبق هراة حاضرة هذا الإقليم، فإن الشيبانيين أصبحوا يحكمون من سمرقند وبخارى ما بقى فى يدهم ببلاد ما وراء النهر، وولت خراسان وجهها شطر تبريز. وهاجر إلى هذه المدينة كثير من رجال الفن فى هراة، كما هاجر إلى سمرقند وبخارى كثيرون التى صورت بها فى أوائل القرن العاشر (الثلث الأول من القرن السادس عشر)، والتى يظهر على إحدى صورها اسم المصور محمد مؤمن[١].

وفى سنة ٩٤٢هـ (١٥٣٥) أتيح للأزبك الاستيلاء مرة ثانية على هراة فنهبوها، وهاجر إلى بخارى أكثر الباقين فيها من رجال الفن، ولعل مما شجع على المهاجرة إلى بخارى ما اضطرت إليه خراسان بعد الفتح الصفوى من اعتناق المذهب الشيعى بينما كان الشيبانيون سنيين كما كان من قبلهم تيمور وخلفاؤه.

وقد كان المعروف من صور مدرسة بخارى قليل العدد، حتى كان معرض الفن الفارسى بلندن سنة ١٩٣١ فظهر بين المعروضات كثير منها، وبعضه من عمل المصور محمود مذهب الذى يعتبر رأس هذه المدرسة.

---

(١) راجع Sakisian: La miniature Persane ص٨٨.

على أن أبدع ما نعرفه من عمل هذا المصور إنما هى الصورة التى نراها فى مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس لمنظومة نظامى «مخزن الأسرار»، كتبه فى بخارى سنة ٩٤٤هـ (١٥٣٧) الخطاط المشهور مير على، ولكن الصورة عليها تاريخ سنة ٩٥٣هـ (١٥٤٦) وتمثل السلطان السلجوقى سنجر ومعه حاشيته وقد استوقفتهم عجوز تطلب إلى السلطان النظر فى مظلمة لها[١].

وتمتاز الصور المصنوعة فى بخارى فى النصف الأول من القرن العاشر (السادس عشر) بروعة ألوانها وبظهور تأثير بهزاد فى صناعتها. ولا غرو فإن مدرسة بخارى ليست إلا امتداد المدرسة التيمورية. ومن أول الأمثلة على ذلك «بستان» سعدى المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، والذى كتب فى بخارى سنة ٩٦٤هـ (١٥٥٥)، وزين بصور تشبه كثيراً صور بهزاد فى «البستان» المحفوظ بدار الكتب المصرية[٢].

وهناك مخطوط من ديوان جامى كان فى مجموعة ديموت Demotte ويرجع إلى سنة ٩٨٣هـ (١٥٧٥) ولكنه يحوى صورة بديعة جداً تمثل لقاء رجل وامرأة، وعليها توقيع الفنان عبد الله مصور، وبها كل خصائص الصور فى أواخر القرن التاسع (الخامس عشر). وفى الحق أن التصوير فى بلاد ما وراء النهر لم يجد مرتعًا خصبًا، ولم يزدهر مدة طويلة، ومع ذلك قد حفظه جموده وعدم تطوره من مثل الاضمحلال الذى سار فى طريقه التصوير فى العصر الصفوى منذ منتصف القرن العاشر (السادس عشر).

---

(١) انظر اللوحة ٣٠ شكلى ٤٠ و٤١ ولاحظ غطاء الرأس فى صور مدرسة بخارى وهو مكون من قلنسوة مرتفعة ومضلعة وتحيط العمامة بجزئها الأسفل وراجع موضوع هذه الصورة (العجوز والسلطان سنجر) فى كتاب L. Binyon: The Poems of Nizami ص١٥.

(٢) راجع . . . . . Blochet: Les Enluminures لوحتى ٥٧ و٥٨.

ومهما يكن من شيء فإن التصوير فى بخـارى ينتهى عصره قبيل انتهاء القرن العاشر (الســادس عشر) وتصبح بلاد ما وراء النهر غـريبة عن التصوير الفارسى غرابتها عنه قبل سقوط التيموريين[1].

* * *

(١) راجع أيضًا . . . Dimand: A Handbook ص ٤٤ - ٤٦ .